"الهُوِيَّة"

د. طه العلواني

تحضير لقاء

تمهيد:

كلمة الهُوِيَّة ترجع إلى مقولة من أهم المقولات العشر التي تعرف فلسفيًّا بالمقولات مثل: الأنا والكيف والكم والإضافة وما إليها من أمور ترجع إلى العرض والجوهر، فالهُوِيَّة ترجع إلى ما يقال في جواب من هو أو ما هو، "والهو" إنَّما ترد دائمًا للسؤال عن حقيقة الشيء ومكوناته، فإذا قيل لشيء ما هو؟ فذلك يعني أنَّ الجواب ينبغي أن يشتمل على المقومات الأساسيَّة التي يدرجون فيها النوع والجنس والفصل والخاصة والعرض العام، وكذلك حين يقال من هو، فإنَّ السائل إنَّما يسأل عن هذه المكونات الخمس: "الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام أو الأعراض العامَّة"، وهو واحد من أهم الأسئلة الفلسفيَّة التي تشتمل إضافة إلى سؤال "الهو" على أسئلة آخرى هي أي شيء ولما ولماذا وكيف، وملتقانا هذا موضع التركيز فيه على سؤال الهُوِيَّة، وذلك يعني أنَّ أطروحاتنا ستدور حول نوع وجنس وفصل وخواص وأعراض عامَّة، فذلك هو الذي يشتمل على الإجابة الكاملة عن سؤال الهُوِيَّة الذي سنحاول الإجابة عنه في ورقتنا هذه.

لقد تعرضت الهُوِيَّة العربيَّة الاسلاميَّة للعديد من المؤثرات خلال القرنين التاسع عشر والعشرين جعلت بعض مقومات تلك الهُوِيَّة موضع جدل ونقاش، واختلاف بين نخبة أو نخب هذه الأمَّة. حدث ذلك نتيجة التداخل الثقافيّ مع الغرب الذي أطلق البعض عليه عنوان "الغزو الفكريّ". وإذا تجاوزنا موضوع "الهُوِيَّة الكليّة" للأمّة، لأنَّها ليست موضوع بحث في هذا اللقاء إلى الهُوِيَّة الثقافيَّة" التي هي محور هذا اللقاء؛ لأنَّ " الهُوِيَّة الثقافيَّة" هي التي تميّز الأمَّة، وتمنحها خصائصها.

ومن أهم عناصر " الهُوِيَّة الثقافيَّة" اللُّغة والقانون والثقافة المنبثقة عنه، والقيم المرتبطة به، والفنون والآداب التي تكون مظهرًا من مظاهر التعبير عنه، وهذا كلّه يندرج في إطار تكوين النفسيَّة حيث إنَّ الشخصيَّة الإنسانيَّة تتألف من عنصرين عنصر العقليَّة وعنصر النفسيَّة، والعقليَّة تكونها الخبرات والتجارب والعلوم والمعارف، والنفسيَّة تشكلها الأمور التي ذكرناها مما يمكن أن يندرج تحت الآداب والفنون.

ونحن من بين الأمم، أو في مقدمة الأمم التي تسعى قيادات "العولمة" إلى إذابة خصوصيَّاتها الثقافيَّة، وصهرها لصالح "ثقافة العولمة". والصراع الدائر سواء اتخذ شكل صراع حضارات أو صراع ثقافات إنَّما هو صراع يستهدف " الهُوِيَّة الثقافيَّة" ومصادرها ومنابعها.

والأصل في هذه الهُوِيَّة التي أطلق عليها "الهُوِيَّة العربيَّة الاسلاميَّة" أنَّها هُوِيّة "أمَّة" تكونت – تاريخيًّا– بكتاب موحى أنزله الله –تبارك وتعالى– بلغة عربيَّة، وانطلاقًا من ذلك الكتاب المنزل تكونت ثقافتها، وتأسّس تراثها وقامت حضارتها. وكانت حضارة حيَّة لأمَّة حيَّة انفتحت على البشريَّة –كلّها– وعملت على استيعاب الخير النافع من ثقافاتها وحضاراتها وفق منهج تفردت به انبثق من ذلك الكتاب المنزل وقام على محددات منهاجيَّة، قوامها –بالنسبة للتراث الدينيّ– التصديق والهيمنة، وبالنسبة لما عداه الاستيعاب والتجاوز.

وإذا أردنا أن نواجه تحدي "العولمة" حقيقة فإنَّه لا يمكن أن يتم إلاّ إذا أحيينا مفهوم الأمَّة، واستعدنا حقيقته، وأعدنا بناء الجسور بين تراثنا وثقافتنا المعاصرة. فإنَّ لدينا تراثًا غنيًّا له وعليه. وتأسس يوم تأسّس على منهج أو مناهج ونماذج معرفيَّة وبحث واجتهاد وإبداع. والتواصل معه لكي لا يتم في دائرة التقليد المرفوض، يجب أن يُقَام به بعد مراجعات وتحليل ونقد وتقييم.

وتعاملنا مع "الحداثة" والمعاصرة يجب أن يقوم على أسس مماثلة. فالحداثة وإن بدت أنّها تقوم على "العلم والمنهج العقليّ" بيد أنَّ كثيرًا من جوانبها لا يمكن فصله تمامًا عن تراث وثقافة الشعوب التي تصدَّرت عمليَّات بنائها وإنشائها. خاصَّة وأنَّ من يروّج للعولمة ويقود سفينتها هم نفس أولئك الذين برزت الحداثة على أيديهم وفي محيطهم الاجتماعيّ. وفيهم وفي طبيعة حضارتهم نزوع لا يخفى إلى المركزيَّة والاستحواذ.

إنَّ أهم ما ينبغي أن يعنى به المثقفون من أبناء الأمَّة لمواجهة أخطار العولمة –هو:

١. العمل على إحياء مفهوم الأمَّة والتذكير والتوعية بخصائصها ولو على المستوى الثقافيّ والمعرفيّ.

تسليط الأضواء على أهم الجوانب المشرقة من تراث الأمَّة، خاصَّة تلك الجوانب التي تبرز إنسانيَّة ثقافتنا وحضارتنا وإسهامات تراثنا الفكريّ والفلسفيّ والعلميّ في تكوين جذور وقواعد الحضارة المعاصرة.

إبراز البعد العالميّ في حضارتنا وثقافتنا وهو بعد يقوم أساسًا على

- الإيمان "بوحدة البشريَّة".
- الإيمان بأنَّ الأرض –كلّها– بيت للإنسان كله. وعلى بني الإنسان أن يتكاتفوا لحفظها وإعمارها وإتاحة فرص العيش المشترك عليها، والاستفادة بمواردها دون استئثار أو استحواذ.
- الإيمان بأنَّ كل الفوارق في اللغات والأعراق والجهات إنَّما هي وسائل تعارف من شأنها أن تمهد للتآلف والتعاون، لا للاختلاف والتصارع!!
- الإيمان بأنَّ الأصل في الإنسان الحريَّة والأصل في العلاقات السلم.
- إدراك أنَّ العولمة تقودها دولة أو دول ركزت في بناء ذاتها ومفاهيمها على "الأرض والدولة". أمَّا الإسلام فقد ركز على "الأمَّة" أمَّة الفكرة، ولذلك فإنَّ البعد العالميّ جزء من أسس "التكوين النفسيّ والعقليّ والحضاريّ والتاريخيّ" لأمَّتنا. بهذه الأسس ونحوها يمكن أن نبرز الفروق الكبيرة بين عالميَّتنا ومركزيَّة دعاة العولمة فعالميَّتنا ضمت خصائص الأمم وثقافاتها وجعلتها جزءًا من روافد ثقافتها وخصائصها. ولم تسمح بتهميش أو تذويب ثقافات الشعوب التي انضمت أو انضوت تحت لوائها.

٢. الهُوِيَّة العامَّة المستوعبة في إطار وحدة جامعة لمجموعة من الهُوِيَّات السابقة لتحقيق التعارف والتآلف والتعاون على العمران.

٣. التعدّد الثقافيّ واستيعابه في إطار الهُوِيَّة المشتركة. الفنانون المعماريُّون إسحاق بن حنين، وابن ميمون والأطباء، حينما ندرس تراجم هؤلاء في كتب التراجم التي وضعها علماؤنا للتعريف بصنَّاع حضارتنا وعلماء ثقافتنا نجد هذه الأسماء التي تعود إلى يهود ونصارى وصابئة ومن إليهم مدرجة ضمن الأسماء الإسلاميَّة ومعدودة في بناة حضارتنا وحرَّاس ثقافتنا مما يدل على تلك النزعة الاستيعابيَّة الأصيلة في ثقافتنا وحضارتنا التي اعتبرت كل ما ينتج في البيئة المسلمة وفي إطار الكيان الاجتماعيّ الإسلاميّ جزء لا يتجزء من ثقافتنا وحضارتنا[١].

٤. اكتشاف الخبرة العربيَّة الإسلاميَّة، ومرجعيَّة التاريخ الإسلاميّ بما يتجاوز ما عرف اليوم بـ "الإسلام السياسيّ" الذي يمثِّل رد فعل لمحاولات التحديث "فالإسلام السياسيّ" مثل رد فعل حديث فقد يكون فيه اختزال لمقوِّمات الهُوِيَّة في حين أنَّ الثقافة الإسلاميَّة المنبثقة عن القرآن تكتنز المنظومة

[١] راجع على سبيل المثال عيون الأنباء في طبقات الأطباء، الموفق بن أبي أصيبعة. وتاريخ الحكماء للقفطي. وتاريخ حكماء الإسلام للبيهقي وما إلى ذلك.

الإيمانيَّة كاملة وعليها تبنى الرؤية الكليَّة للأمَّة، كما تكتنز الشريعة وما ينبثق عنها من منظومة فقهيَّة بكل جوانبها وهي التي تعد المنتج الأساس للثقافة، كما يكتنز الجوانب الوجدانيَّة والنفسيَّة وهي منطلقات الفنون والآداب وأسسها. والعولمة مرحلة وإفزاز وهي سوف تأكل نفسها بنفسها؛ لأنَّها تقوم على مبدأ المركزيَّة " centrality".

٥. إنَّ ثقافتنا القرآنيَّة استطاعت فيما مضى وهي قادرة اليوم وفي الغد أن تستوعب البشريَّة كما سنوضح، في حين أنَّ خلفاء روما من العولمة الأمريكيَّة والعولمة الشيوعيَّة لم يستطيعوا أن يستوعبوا أحدًا وإذا كانت الشيوعيَّة قد تفككت وعادت العنصريَّات التي انضوت تحت لوائها لتعيد تشكيل نفسها على أنقاض تلك العولمة المفتعلة فإنَّ العولمة الأمريكيَّة بدأت تتمايز وتكشف عن قلَّة جدواها وضعف جديَّتها بعد ١١سبتمر، فقد صدرت قوانين مفرقة بين مكونات الشعب الأمريكيّ لم تستطع الديمقراطيَّة أن تحول دون إصدارها؛ ولذلك فقد تمايزت مكونات الشعب الأمريكيّ وبرز الأبيض ذو الخلفيَّات الأوربيَّة ك Super American وبقيَّة المواطنين وخاصَّة الملوَّنين منهم أو القادمين من جذور أسيويَّة أو إسلاميَّة وعربيَّة أو إسبانيَّة مواطنين من درجات مختلفة يجمعها أنَّها كلها دون ذلك الرجل الأبيض الذي قدم ذات يوم إلى هذه الأرض فارًا من الاضطهاد الأوروبيّ زاعمًا أنَّه قد اكتشف أمريكا اكتشافًا في حين أنَّ أمريكا كانت موجودة وكان يسكن أرضها مئة وأحد عشر مليونًا أسسوا حضارات عديدة في تلك الأرض قبل أن يصلها الرجل الأبيض الذي يتحكم في مقدَّراتها هذه الأيام ويعطي لنفسه من الحقوق والمزايا ما يرى أنَّ غيره لا يستحقه وأنَّه متفضل بما يعطي. أمَّا الثقافة القرآنيَّة فقد استوعبت كل تلك الأعرق والثقافات والأديان وأقامت نموذجها الإنسانيّ المتميِّز وعاشت قرونًا طويلة وهي تعيش على ذلك النموذج الذي أسس وأصل له القرآن.

لقد بيَّن القرآن المجيد سنَّة من سنن السلوك الإنسانيّ على مستوى الأفراد والجماعات في قوله -جلَّ شأنه: ﴿**كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى**﴾ (**العلق:٦-٧**) فإذا كان قارون من قوم موسى فبغى عليهم بمجرد غناه وإحساسه بالاستغناء عن غيره: ﴿... **وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ**﴾ (**القصص:٧٦**) فإنَّه مثل لكل من ينفصل عن قومه ويستبد عليهم ويتعالى عليهم لشعوره بالغنى عنهم وحاجتهم إليه، فإنَّ الأمم لا تختلف عن الأفراد في هذه السنَّة فإنَّ الأمم قد تطغى حين ترى

نفسها في حالة منعة وقوة واستغناء عن الآخرين، وتلك البذور الأولى التي جعلت بعض الأمم تحوّل نفسها من أمَّة مستقرة في حيز من الأرض، وتعمل لصالح شعب من الشعوب إلى إمبراطوريَّات واسعة تنتشر في الأرض بالقوَّة الحربيَّة وبسواها، فالإمبراطوريَّة الرومانيَّة شهدت امتدادًا وتوسعًا، وأجبرت شعوبًا كثيرة على الانضواء تحت رايتها، والاندماج في كيانها، وصارت روما هي المتحكمة في مصائرها، وقد تجبرها على تغيير أديانها وهُوِيَّاتها، والتنازل عن كثير من خصائصها؛ لتطمئن أنَّها لن تخرج عن قبضتها مرة أخرى، ثم فعلت ذلك بريطانيا التي كانت تفخر بأنَّ الشمس لا تغيب عن ممتلكاتها، وها هي أمريكا تحاول أن تمثِّل دور روما الحديثة فتمد أيديها إلى كل بقعة من الأرض، وإلى كل محيط من المحيطات أو بحر من البحور، بل ها هي تحاول أن تمتلك الفضاء وتصادر ملكيَّته، وترفع على القمر راياتها إعلانًا عن أنَّ سيادتها قد جاوزت الأرض وامتدت إلى الفضاء، وحينما تبلغ الأمم هذه الأحوال دون اهتداء بما أوحى الله لرسله من روح من أمره ووحي وهداية فإنَّها تجعل من نفسها مركزًا تريد أن تفرض على الناس كافَّة أن يدوروا حوله ويقتدوا به ويستنُّوا بنظمه بقطع النظر عن توافر شروط ذلك في تلك البلدان وبين تلك الشعوب من عدم توافرها.

والأمَّة المسلمة حين انحرفت عن مبدأ الدعوة وجرى استبداله أو مزجه بمبدأ الفتح كادت تصبح مركزيَّة مماثلة لولا أنَّ هداية القرآن المجيد وما تمسك القوم به من أنواره أبعدتهم عن ذلك، وجعلت المسلمين أرحم فاتح شهدته الأرض قبل الإسلام وبعده. ولو أنَّ المسلمين استمروا على وعي بأنَّهم أمَّة دعوة وأمَّة وسط وخيِّرة، ومهامها تنحصر في الشهادة على الناس، والشهادة حضور خيِّر ليس فيها معاني الفتح ولا القصر ولا القتال، بل هي حضور خيِّر ينتصر للحق ويحول بين الباطل أن يسود ويستشري، ويسدد ولا يهدد، ويرشِّد ولا يختل، ويهدي للتي هي أقوم، ولا يفرض ولا يكره للمحافظة على الكرامة الإنسانيَّة التي لها صفة العموم والشمول: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾ **(الإسراء: ٧٠)** فالتكريم عام في البشريَّة شامل للإنسانيَّة كلها، لا يختص به أحد دون أحد؛ ولذلك فإنَّه رغم ما حدث من انحراف بعد الانقلاب القبائليّ الأمويّ على الخلافة الراشدة فإنَّنا لا نستطيع أن ندرجها في إطار الإمبراطوريَّات التي شهدتها الأرض.

إنَّ العالميَّة مبدأ قرآنيّ ثابت قرر القرآن أسسه وضوابطه، وأبرز هذه الأسس أولًا العهد الذي أخذه الله –تعالى– على البشر كافَّة: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ**

عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف:١٧٢) ثم عالم الاستخلاف: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ...﴾ (البقرة:٣٠)** والاستخلاف أيضًا مهمة عامَّة شاملة للبشريَّة كلها، ثم عالم الائتمان: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب:٧٢)**، وعالم الابتلاء والجزاء وهذه أيضًا شاملة للبشريَّة كافَّة، فما من إنسان يمكن أن يستثنى من ذلك، ثم يأتي القرآن بما يستوعب به الفروق التي كان لابد منها لتحقيق غاية الحق من الخلق وبناء العمران، كالفرق بين الذكر والأنثى فيستوعبه القرآن بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:١٣)** وهذا أقوى من أي مبدأ يقال في التقليل من الفوارق بين الذكر والأنثى على مستوى النوع أو على مستوى النشاط، وكذلك على مستوى العمل ومآلاته وقبوله من الله ورفضه فقال –جلَّ شأنه : ﴿**... أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ (آل عمران:١٩٥)** وقوله تعالى: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (النساء:١٢٤)**، وأمَّا اختلاف الألسن والألوان والمواقع الجغرافيَّة فكلها جعلها الله –سبحانه وتعالى– بعضًا من آياته فقال –جلَّ شأنه: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ (الروم:٢٢)**، فوضعها كلها في إطار اختلافات التنوُّع للتضاد ووضع لها هدفًا هو التعارف المؤدي إلى التآلف والتأليف بين القلوب، والتآلف مبدأ قرآنيّ أقام عليه التدافع بين الناس لحماية القيم والصوامع والبيع والمساجد: ﴿**... وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج:٤٠)**.

وفي هذا الإطار القرآنيّ الرائع لم يطرح سؤال الهُوِيَّة كما فرضته الحضارة الغربيَّة اليوم التي استندت في إثارته وصياغته إلى تراث يونانيّ رومانيّ أو إغريقيّ وثنيّ لا علاقة له بالتوحيد ولا بالدين؛ لذلك اتسمت كل المركزيَّات المعاصرة بالاستبداد والتسلط والاستعلاء على الإنسان، وما يزال المبدأ الإسرائيليّ القديم الذي أشار القرآن إليه: ﴿**وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:٧٦)**

سائدًا في علاقات هذه الحضارة، فلقد ارتفعت أصوات قيادات هذه الحضارة تنادي بالويل والثبور وعظائم الأمور يوم وجد عالم باكستاني وهو عبد القادر خان حيث ضغطوا على الحكومة الباكستانيَّة لسجنه واضطهاده بعد أن يئسوا من إقناعه بالانتقال إلى الغرب والعيش فيه، ولو كان الرجل يعيش في أوروبا أو أمريكا لأغرقوه بالجوائز ابتداءً من جائزة نوبل إلى الجوائز الأخرى، ولشهروه عالميًّا، أمَّا وهو مسلم يعتز بإسلامه ويصر على العيش بين المسلمين ويسعى ليكون جزءً من علماء النهضة؛ فلابد أن يقضى عليه، وها هي الضجة تبلغ عنان السماء حول مشروع إيران النووي، وقبل ذلك دمر العراق كله، وفككت الدولة العراقيَّة، وحولت إلى أشلاء باسم الخطر النووي الذي زعموا أنَّ نظام صدام قد اكتشفه، وأنَّه قد يستخدمه، وأعطوا لأنفسهم كل المبررات لأن يدمروا العراق، ويعيدوه إلى القرن الثامن عشر، ويهدموا كل معلم حضاريّ فيه؛ ليقولوا: إنَّنا قد ذهبنا إلى بلد متخلِّف، وحاولنا نقله إلى الحداثة والحضارة وبناء الديمقراطيَّة فيه، والعالم كله يشهد إنَّهم لكاذبون.

فمسألة الهُوِيَّة عندنا نحن المسلمون قد حسمها القرآن، فالهُوِيَّة: "إنِّيَّة"، والإنيَّة من أنا، فإذا قال لي أحد: من أنت؟ فسأقول: أنا إنسان من بني آدم، وآدم من تراب، عاهدت الله على أن أوحده، وألقى على أبي كلمات فتاب عليه، واستخلفه، واستخلف ذريته وأنا منهم في هذه الأرض؛ لنقيم فيها الحق والعدل، والخير والجمال، والحريَّة والمساواة، وجعلنا شعوبًا وقبائل؛ لنتعارف، وأوجد الاختلاف النوعي بيننا في الألسن والألوان وما إلى ذلك، لا لننسى الانتماء الإنسانيّ العام والمشترك، وننشغل بتلك العوارض التي لا تمثل ذاتيَّة ولا هُوِيَّة، بل هي مجرد عوارض خلقها -جلَّ شأنه- لحِكَم وأسباب بيَّنها لنا، ما كان ينبغي أن ننصرف إليها، ونلتف حولها، ونتجاهل الانتماء الأكبر إلى آدميَّتنا وإنسانيَّتنا وبشريَّتنا المنبثقة عن التراب والعائدة إليه. لكنَّ الإنسان قد تجاوز ذلك وغالى في بعض تلك الصفات، وجاوز بها الحدود، حتى جعل منها خصائص ذاتيَّة له بنى بمقتضاها ما أسماه بالهُوِيَّة، وبدأ يمايز بين البشر بناءً على ذلك، وكله انحراف وخطأ بمعنى الإنسانيَّة الذي كان ينبغي أن يكون السائد في كل شيء.

لا شك أنَّ البشر غير متساوين في قدراتهم وذكائهم، ولقد أدى عدم التساوي إلى أن يتمكن بعض البشر من حيازة أموال أو أراض أو القيام بصناعات، وذلك أيضًا أمر قد استوعبه القرآن وأشار إلى أنَّه أدى إلى فرصة لتفضيل بعضنا على بعض في الرزق، على ألا يمس ذلك التفضيل إنسانيَّتنا أو يغيِّر من تلك الحقائق الثابتة التي تناولناها، وأن نعلم أنَّ ذلك إنَّما حدث ليتخذ بعضنا

بعضا سخريًّا، فيكون هناك من البشر عمَّال وفلاحين ويكون هناك موظفون وإداريُّون وحكَّام ومحكومين لتنظيم شؤون وشجون الحياة، لكنَّ ذلك كلّه ما كان ينبغي أن ينظر إليه على أنَّ فيه تفضيلًا للحكَّام على المحكومين أو الأذكياء على الأقل ذكاء، بل يعلم أنَّ ذلك كله إنَّما هو تنظيم منبثق عن تقدير العزيز العليم، الذي يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، ويعلم ما يصلحهم وما يفسدهم، وإذا كان الناس لا يصلحون أن يكونوا كلّهم عمّال أو فلاحين فلا يصلحون أن يكونوا كلّهم حكَّامًا وقادةً وأصحاب أموال في كل ذلك، فالمساواة تكون في الإنسانيَّة والكرامة الإنسانيَّة والمسؤوليَّة أمام الله في الدنيا والآخرة، لكنَّ الحياة لا تستقيم والإنتاج لا يمكن أن يتحقق إلا إذا فضَّل الله بعضنا على بعض في الرزق، والرزق هنا هو وسائل الكسب من قدرات وذكاء وما إلى ذلك، والإنسان في نظره القاصر الذي قد لايتجاوز ذاته أو ما حوله قد يعتبر العاهة أو المرض أو القصور ظلمًا، ولكنَّه إذا نظر إليه في إطار الخطة الكبرى للبشريَّة وإدارتها فإنَّه سوف يدرك الحكمة الكامنة وارء ذلك كلّه، فلولا وجود المرضى والأمراض لما وجد أطباء، ولولا وجود الرغبة لدى الإنسان في بناء المدن والقرى والتأسيس للحضارات لما وجدت الحاجة إلى المهندسين والبنَّائين وعمّال الحجارة، وحين يضع أي منَّا رغيف خبز بين يديه فليتذكر أنَّ هذا الخبز كان بذرة قمح فلولا وجود فلاح وأرض ومياه وزمان ومكان ومصانع لحفظ الغلال ومصانع للدقيق ومخابز لما وصل رغيف الخبز إلى أيدينا، فهي سلسلة متصلة من الخدمات ف:

النَّاسُ لِلنَّاس مِنْ بَدْوٍ وَحَاضِرَة بَعْضٌ لِبَعْضٍ وَإِنْ لَمْ يَشْعُرُوا خَدَمُ

فالأمر ليس كما توهم ماركس وإنجلز ولينين أنَّ هذا ظلم، ولا أظن أنَّ للينين أو ماركس امتنع عن أكل الخبز أو اللحوم أو أي نوع من أنواع الطعام أو السكنى في البيوت أو الاستظلال بها؛ لأنَّها تعد من قبيل الاستغلال لأناس ضعفاء ما وجدوا ما يعملونه إلا الفلاحة أو الزراعة أو الاشتغال بالأفران وشي الخبز فيها ثم نقله وما إلى ذلك، فدورة الحياة إنَّما تقوم على ذلك التدبير والتقدير. ولأنَّ الإنسان مفطور على الرغبة بالتفوق فقد جعل القرآن بين يديه وسيلة واحدة للتفوق ألا وهي التقوى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (**الحجرات:١٣**)، وميَّز بين البشر بذلك، فكان هناك من أنعم الله عليهم بالإيمان، وهناك الكافرون، وهناك المنافقون، فالبشر منهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله؛ لأنَّ ذلك هو الذي يستقيم مع تلك المبادئ التي أرسى دعائمها القرآن، فهُوِيَّتنا نحن المسلمين إنسانيَّة آدميَّة بشريَّة، اختصها الله بالشهادة على

الناس على أن تلتزم دائمًا بما يؤدي بها إلى موقع الخيريَّة والوسطيَّة: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ...﴾ **(البقرة:١٤٣)** فهي تنظر إلى البشريَّة بحنو وأخوَّة خالفتها أو وافقتها، وهي لا تحاول استلاب ما بين أيديها بل تحاول إعادة تقسيمه وفق توزيع إلهي عادل لتستقيم الحياة وتستمر وتتحقق غاية الحق من الخلق؛ لذلك فإنَّنا في هذا العصر مطالبون أكثر من أي وقت مضى بأن نتنبّه جيدًا لقضايا المفاهيم، وأن لا نشغل أنفسنا وأوقاتنا بأسئلة يصدرها الآخرون لنا، مثل سؤال الهُوِيَّة، فإنَّ أمَّة تعجز عن صياغة أسئلتها بنفسها وانطلاقًا من إنيَّتها لن تكون قادرة على تقديم الإجابات الصحيحة أو الدقيقة عن تلك الأسئلة التي لم تنبثق من ضميرها.

الخلاصة:

من هنا نستطيع القول بأنَّ نقاشاتنا وحواراتنا ينبغي أن تنبثق عن كتاب ربنا الذي حدد لنا هُوِيَّتنا بالشكل الذي أسلفنا، وليس لنا أن نفرض على أنفسنا أسئلة الهُوِيَّة كما طرحتها الفلسفات التي قامت على أساس منها الدول القوميَّة والدول القطريَّة؛ لأنَّ تلك الأساسات في نظر المسلم ذي التوجه الإنسانيّ الشامل والآدميّ المتكامل توجهات قاصرة لا يستطيع حصر نفسه فيها، فإذن نحن قوم نحتاج إلى إعادة بناء هُوِيَّتنا وأسئلتها وإجاباتها بعيدًا عن ضغوط العولمة وإكراهاتها، سالكين المسلك القرآنيّ في تحديد هُوِيَّتنا.

فمسألة الهُوِيَّة عندنا نحن المسلمون قد حسمها القرآن، فالهُوِيَّة: "إنِّيَّة"، والإنيَّة من أنا، فإذا قال لي أحد: من أنت؟ فسأقول: أنا إنسان من بني آدم، وآدم من تراب، عاهدت الله على أن أوحده، وألقى على أبي كلمات فتاب عليه، واستخلفه، واستخلف ذريَّته وأنا منهم في هذه الأرض؛ لنقيم فيها الحق والعدل، والخير والجمال، والحريَّة والمساواة، وجعلنا شعوبًا وقبائل؛ لنتعارف، وأوجد الاختلاف النوعيّ بيننا في الألسن والألوان وما إلى ذلك، لا لننسى الانتماء الإنسانيّ العام والمشترك، وننشغل بتلك العوارض التي لا تمثل ذاتيَّة ولا هُوِيَّة، بل هي مجرد عوارض خلقها -جلَّ شأنه- لحِكَم وأسباب بيَّنها لنا، ما كان ينبغي أن ننصرف إليها، ونلتف حولها، ونتجاهل الانتماء الأكبر إلى آدميَّتنا وإنسانيَّتنا وبشريَّتنا المنبثقة عن التراب والعائدة إليه. لكنَّ الإنسان قد تجاوز ذلك وغالى في بعض تلك الصفات، وجاوز بها الحدود، حتى جعل منها خصائص ذاتيَّة له بنى بمقتضاها ما أسماه بالهُوِيَّة، وبدأ يمايز بين البشر بناءً على ذلك، وكله انحراف وخطأ بمعنى الإنسانيَّة الذي كان ينبغي أن

يكون السائد في كل شيء –كما ذكرنا– وإنَّني اعتبر أنَّ جواب ربعي بن عامر لقائد الفرس: "إنَّ الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدينا إلى سعة الدنيا والآخرة" جوابًا يمثِّل هُوِيَّة المسلم الذي يعرف من هو وماذا يريد بالشكل الذي حدده القرآن المجيد.

نسأله –سبحانه وتعالى– أن يهدينا وإياكم سواء السبيل، وأن ينير بصائرنا وأبصارنا بهدي ونور كتابه وهدي نبيِّه –صلى الله عليه وآله وسلَّم– إنَّه سميع مجيب.